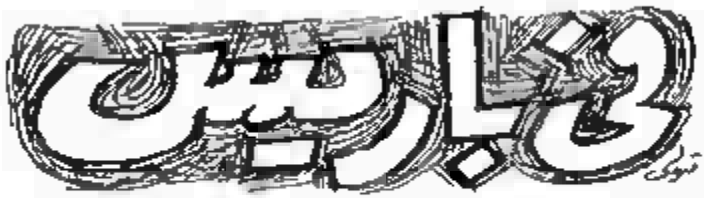

بقلم : راشد رستم

كان ذلك في باريس ، في صحي يوم من أيام الآحاد، وفريد جالس في غرفته كعادته فيه ـ فريدا وحيدا ، متكاسلا مشغلا ببعض القراءات والكتابات ، واذا به يسمع صوت اقدام نسائيـــة تسرع الخطا نحو غرفته ..

انها «المدموازيل» ماري رئيسة الخدم، تدق الباب دقات سريعة متتالية ، ولكن في لطف وحشمة وأدب .

فريد ـ خيرا يامدموازيل .

ماري ـ خيرا خيرا خيرا .. بونجور مسيو .. اسرع .. اسرع .. هيا .. هيا .

ثم تتكلم بسرعة الف كلمة في الدقيقة ـ دون ان تعطي فرصة للاستفســـار ـ مثلها في ذلك مثل الكثيرات من بنات جنسها الفرنسيات اذا ما ارتفعت درجة احتمامهن بأي أمر من الامور .. تافها كان أو خطيرا .

فريد ـ ماذا جرى يامدموازيل ؟ .

ماري ـ .. في انتظارك تحت، ها انا صعدت السلالم الى هذا الدور الرابـــع بسرعة المصعد .. يا الله ! ليس هذا بالأمر السهل .

فريد ـ يا مد ...

ماري ـ المصعد عاطل واليوم يوم الأحد .. تصور .. يا مسيو فريد .. ليست غلطتي ولا ..

فريد ـ يامدمو ...

ماري ـ ولا غلطة أحد من الخدم .. من يدري . لعل احدا من السكان قد جاء متأخرا الليلة الماضية ولم يحسن معاملة المصعد .. و ..

فريد ـ يامدموا ...

ماري ـ فأساء الى المصعد وهكذا أساء الينا جميعا .. يا الله .. اسرع يا مسيو فريد .. انها .

فريد ـ يا مدموا ...

ماري ـ انها في انتظارك عندي في مكتب المدخل .. وليست في ..

فريد ـ يا مدموا ..

ـ ماري ـ نعم ليست في الصالون .

فريد (وقد قل صبره..) يامدموازيل

مـــاري .. حلمـــك .. من هي التي تقصدين .. وماذا في الامر ؟ .

ماري ـ .. انسالني من هي ؟ ألم أقل لك ان « المس » مارجريت هي في انتظارك تحت في مكتبي ! .

فريد ـ لا .. لم تقولي شيئا من هذا .. مع انني قلت اشياء كثيرة جدا ومع ذلك خير ان شـاء الله ثم ماذا جاء بها اليوم بعد غياب اربع سنوات ! .. ثم لماذا في مكتب المدخـــل وليس في الصالون ؟ .

ماري ـ انا اتيتها عندي .. كم انا احبها .. ثم انها غابت بالضبط اربع سنوات وشهرين وعشرة أيام ... كما عملت الحسبة معها الآن .. ثم قل لي يا مسيو فريد هل أنت تعاتبها عـــلى المجيء ام على الغياب ؟! كم افتقدها .. ولقد سررت جدا جدا برؤيتها ومكثت معها بعض الوقت قبل أن أصعد اليك وان كانت تقول لي انهـا متعجلة ! .. ما أجملها وما أرشقها .. هيا .. هيا .. اسرع يا مسيو فريد .. انها متعجلة !

هذه هي المدموازيل ماري الشيطنة الطيبة القلب ، المحبوبة من الجميع .. ثم أكمل فريد هندامه وأسرع .. ولكن المس مارجريت كانت قد اســـتبطأته فأخذت تصعد السلم .. واذا بهمـــا يلتقيان في ذات الموضع الذي كان عنده أول لقاء لهما عصـــادفة أيام كانت تسكن في نفس الصدق البيتي منـــذ اربع سنوات .

وقف كل منهما جامدا في مـــكانه وقد أخذتهما المفاجأة السـارة فحمل كل منهما ينظر الى الآخر لحظة أو بعض لحظة .. ثم ما اسرع أن تحركت الشفاه وضاعت البسمات وبانت نشوة اللقاء بعد طول الغياب .. ثم اندفعت مـــع النظرات العميقات تيـــارات الاشتياق والترحيب الحبيب .. وقد تولاهـــا الاضطراب المحبوب فتسرع العيون في قليل من اللحظات تسرح فيها مع مكنون ذكرياتها الماضيات لتفرح بها فيما ترجو من بهجة الايام ... ثم انطلقا في صرة واحدة .

هي ـ كيف أنت .

هو ـ كيف أنت

ثم تقاربا ليسيرا جنبا الى جنب نحو الباب الكبير للخروج .. وتحيره بانهـا وصلت صباح اليوم بالطائرة وانهـا حاولت الاتصال تلفونيا فلم توفق فتركت حوائجها في الصدق واسرعت اليه خشية خروجه رغم علمها بانه يلزم « قلعته » صباح الآحاد .. ثم تميل اليه في دلال واشتياق وتقول

مارجريت ـ هل أنت حر اليوم ؟

فريد ـ اليوم وبعد اليوم .

مارجريت ـ (في رقة ونظـــرات سارحة) هل تسمح لي ان اتناول الغداء معك اليوم ؟!

فريد ـ حقا ؟

مارجريت ـ نعم حقا .

فريد ـ بكل سرور .

مارجريت ـ اذن تسمح لي بان اذهب الى الحلاق ؟

فريد ـ حكذا سريعا .

مارجريت ـ انها باريس يافريد .

فريد ـ في الانتظار ·

ثم اوصلها الى العربة وعاد راجعا ماخوذا بالدهشة الممزوجة بالبهجة لهذه الزيارة المفاجئة ·· وهو وان لم يستطع ان ينساها مدى تلك السنين غير انه لم يكن يظن ان القدر سيجمعهما مرة اخرى · وفي الحق لقد كان يحمل دواما ذكرياتها وهو كسير حسير حزين ·

واليوم يشعر بالسرور يحتويه ويسري في فؤاده وبالانشراح يملأ جنانه وبالنشاط يدب في كيانه ·

وفي عودته جابهته المدموازيل مارى تخبره انها اتمت كل شيء ! ·· وانها اصدرت الاوامر لترتيب المائدة ·· وان توضع في الركن الهادىء من صالة الاكل وان تجمل لائقين وتزين بزهرات النرجس ·· وان يقدم السيد الابيض الخفيف وان يقدم الطعام في الوقت الذي تكون فيه الصالة قد خلت من كل احد ·· و ·· و ··

عجب فريد من أمر مدموازيل مارى وتتبعها لهما بلباقة مع الصابة العانقة واستراق السمع وهما يتحدثان ·· بل يتناجيان ·

على أنه شكرها على هذه الرعاية · ثم اتجه نحو المصعد ليعود الى « قلعته » ·

مارى ـ ماذا بك يا مسيو فريد ·· ألست مسرورا لم انك مشغول البال ؟ الم اخبرك منذ قليل بأن المصعد عاطل اليوم ؟ ·· هل نسيت ام ان شيئا قد شغلك فانساك ! بالله ماذا بك يا مسيو فريد ؟ ··

فريد ـ (في ارتباك بسيط) لاشيء لا شيء ·

مارى ـ أرجو ذلك وارجو ان اقول لك شيئا ·

فريد ـ تفضلي ·· قولي ·

مارى ـ كل ما اعلمه عنكما جميل وجليل · ان امثالنا يفهمون الناس سريعا وصحيحا ·

فريد ـ اشكرك كثيرا ·· وانى احفظ لك منذ الايام الاولى كل خير ·

مارى ـ ·· ان والمس مارجريت تنطوي نفسها على صفات وطباع تسير وتتفق مع نظام معيشتك ·· لقد عرفتها وخبرتها وخبرت ميولها ! ·

فريد ـ (مرتبكا) ما هذا يامدموازيل ·· وما الداعي الى كل هذا ! ·

مارى ـ ليس في كلامي شيء غريب او غير صحيح · ان التقريب بين القلوب ليس كالتقعير منهما · أليس كذلك ؟ ·

فريد ـ ·· نعم · نعم انه حق كذلك

وبعد الغداء اللطيف في جو الحريف المتمشي مع نشوة السيد الخفيف ، في صفاء الميول ورقة الرضا وحسن القبول والجلسة ذات الاحاديث · عرض فريد على « صيفه الشرف » · تناول القهوة على الطريقة الشرقية ·

مارجريت ـ جميل ·· أيصنعونها هنا ؟ ·

فريد ـ لا · ولكن انا الذي اقوم

بعدهـــا .. وما فى غرفتى .. لذلك ربما ! .

مارجريت ـ ربما ماذا ! هيا بنا الى غرفتك .. كم كنت مشتاقة اليها وكم حدثتنى المدموازيل مارى .. عنها .. وما فيها من روح وحياة ..

فريد ـ (مبتسما ممجدا راضـــيا) المدموازيل مارى .. نعم المدمـــوازيل مارى دائما ..انى اقدر لفتاتها وخدماتها واحترمها .

مارجريت ـ اتتهكم .

فريد ـ كلا . حقا كلا .

وفى لمح البصر كان فريد ومارجريت فى الغرفة ، ذات الروح والحياة ، وفى لمح البصر كذلك لاحظت مارجريت كل شىء فيها .. ثم القت بنفسها فى راحة واطمئنان على «الديفان» .. وهى تقول

مارجريت ـ انى عاتبة عليك كثيرا يا فريد .

فريد ـ حيرا .. !

مارجريت ـ الا تذكر عندما جئتك يوما الى غرفتى فى صندق فى تلك الايام الاولى .. ورفضت ان تجلس لتسكت .. وبقيت واقفا . فى رزانة ولـــكن فى رشاقة .. كما يقف برج ايفيل هنـــا بباريس صامتا وهو الذى تصدر عنه من اعلاه تيارات وموجات اثيرية قوية الهرات .. الا تذكر ؟ ..

فريد ـ (فى استحياء) اذكر .

مارجريت ـ كم من الزمن مضى على ذلك ؟ .

فريد ـ اربع سنوات .

مارجريت ـ لا . بل اربع ســـنوات وشهرين وعشرة أيام .

فريد ـ (ضاحكا مسرورا) اكثر الله من امثال المدموازيل مارى .

مارجريت ـ اتتهكم عليها .

فريد ـ معاذ الله .

مارجريت ـ ان الامر يخصنا . دع مارى الآن . أتدرى ! . لقـد ارتفعت انت يومذاك فى نظرى قدرا وتقديرا . فوق قدرك وتقديرى .. فلا تبتئس بما اقوله لك الآن ـ فقد نشأت انا بين قوم محافظين .. يرضيهم هذا شكلا وان كان لا يرضيهم موضوعا . ولكنى فهمتك يومذاك اكثر من أى يوم مـــضى .. ما أحلى الحياء مع الود والاخلاص ! انى آسفة لهذا الحديث ذى الشجون ولكن معـــذرة .. انى اعيد ذكرى ماض لم يمض .

فريد ـ حقا كل ما تقـــولين .. ان الناس لهم الظـــواهر .. انى أحب من يحبنى ولا أكره من لايحبنى . انه حر . وانا حر ـ غير انى لا اظاهر بل افضل فى ذلك الصمت والهدوء . مع الرضا والاخلاص .. اليس لكل وجهة هـــو موليها ؟ .

مارجريت ـ نعم . الناس احرار فيما يفعلون .. ولكنى اطالبك من الآن بأن تفصح عن نفسك بلسانك كما تعلن عنها بعينيك .

فريد ـ أليست العين افصـــح من اللسان ؟ .

مارجريت ـ (ضاحكة راضية) وهى اخطر .

وبعد فترة صمت وسكون وهدوء وتاملات من الطرفين المتناقشين ! .. سالته عن القهوة وأحابها بان المناقشة او المناوشة — احدث منها وقتا كان لطيفا بفضل المدموازيل مارى .

مارجريت ـ يا للمسكينة .. انى اقدرها واحترمها واحفظ لها جميل الذكريات .. والآن اريد ان ارى كيف تصنع القهوة التى وعدتنى .. اياك الا تكون هناك قهوة اطلاقا ! .

فريد ـ ها هى ذى ..

مارجريت ـ حقا انها لذيذة ومنعشة اكثر من القهوة الفرنسية السوداء ذات المرارة مثيرة المرارة .

ثم ادارت بصرها فى الصور المعلقة وهى ترشف من القهوة فى استمتاع واسترواح . ثم تسأل ..

مارجريت ـ صورة من هذه ؟

فريد ـ صورتى وانا صغير . انى احبها واحتفظ بها امام ناظرى دائما وان كانت مناسبتها فى ذاكرتى دواما لها ذكرى طيبة مع والدى وانا فى الرابعة . وقد حلمت أول مس لى . ثم ارضانى والدى بما اشتراه لى مما يعرف انى امثل اليه من لعب الاطفال ـ قطار سكة حديد تد احدنى الى صاحبه المصور المتساوى الشهير . فكانت هذه الصورة — التى ارتاح اليها كثيرا وارضى عنى فيها — ولا أدرى لماذا وضع المصور فى يدى اليسرى كتابا ـ ولم أكن لذلك السن اذهب الى المدرسة وان كنت أتلقى من فيه البيت سورا من الكتاب الكريم وبعض المحفوظات دون كتابتها .. وكان ذلك المصور اللطيف قد اوحى اليه بما سيكون لى من حب الكتب واقتنائها حتى صارت لى مكتبة كبيرة معروفة . اعتز بهـا كاثمن شىء لى .. واقضى اروح اوقاتى فيها .. واقول عنها .. اذا غبت عنكم فاسألوا عنى مكتبتى » .

مارجريت ـ وما هذا المكتوب تحت الصورة ؟ .

فريد ـ انه بالفرنسية وبالانجليزية وبالعربية ما معناه ـ فى أيامى مضى صباحى ... !

مارجريت ـ حقا انها صورة بديعة طريفة .

فريد ـ ان ذلك المصور كان فنانا قديرا . وكان والدى كذلك فجمعت بينهما محبة الفن سواء كانت حرفة أو هواية .

مارجريت ـ نعم . الصورة جميلة جدا .. غير انى اقصد اكثر من ذلك ان الذى فى الذى فى الصورة —

فريد ـ .. والذى فى الذى فى الصورة .. أهو جميل كذلك ؟ ..

مارجريت ـ لا تتهكم .. كفاك تهكما .. اسمح ان فى الشخص الذى فى الصورة (وهو سيادتكم ..) شيئا جميلا آخر .

فريد ـ حسن وما هو هذا الشىء .. يا ترى ؟ .

مارجريت ـ ألا تعرفه ؟

فريد ـ ليتنى أعرفه بعد هذه السنين الثلاثين ـ انى بطىء فى فهم الغوازير ـ

مارجريت ـ قلت لك لا تتهكم .. انظر الى الصورة أولا .. ثم انظر الى عينيك فى المرآة .. ثم دعنى انظر اليك والى الصورة .. ثم تعال أريك كيف تحل الالغاز والغوازير .

فريد ـ .. لا تتهكمى .. !

مارجريت ـ ان الذى فى صـــورتك صغير هو عينه فمك كبير ـ

فريد ـ لم افهم شيئا .

مارجريت ـ عيناك . عينـــاك .. كانى بهما اليوم هما فى ايامك مـــع حورياتك الصغيرات ـ

فريد ـ حقا ـ وان كلمـــة الحوريات الصغيرات افضل من الحسيات .. وان كانت الحسيات أوفق ـ

مارجريت ـ ان الذى فى عينيك هو فيهما لايزال .. وان كانت قد اتسعت دائرة لعبه مع الحوريات الكبيرات .

فريد ـ وانت ! انت كذلك ..

مارجريت ـ انا ! انك لم تعـــرفنى صغيرة .. وليست لى امامك صـــورة مع ..

فريد ـ مع .. مع .. مع لست أدرى ! .. ولكن شعورى ـ وهـــو لا يخيب ـ يقول لى ان فمك هذا هـــو فمك ذاك .

مارجريت ـ (في دهشة الارتياح) حقا ؟ أحكذا تعلمت سريعا ان تفصح بلسانك كما كنت تتكلم بأطرافك ؟ !!

فريد ـ ولم لا ؟ واني أكاد أقرر ان هذه الشفة التجاعيدية هي هي ٠٠ فيها كل شيء ٠٠ وان كان هذا الشيء قد ازداد مع الأيام ٠

مارجريت ـ لن تعلمني ـ فانا لازلت استاذتك ـ وانا التي حركت لسانك بما يدور في عينيك ـ وبين حسيك ـ

فريد ـ ولكني برهنت على اني تلميذ سريع الفهم سريع التطبيق ٠

مارجريت ـ ولكن ما قولك ٠٠ في ان شفتي هذه ليست هي شفتي تلك ! ٠٠

فريد ـ امر عجيب ٠٠ وكيف كان ذلك ؟ ٠

مارجريت ـ انني انا التي حولتها الى ما ترى ٠٠ وكأني حينما عملت ما عملت أو حينما نهيت نفسي ٠

فريد ـ على العكس ٠ ليس فيها ما يعيبها وليست تعيبك ٠٠ بل هي جميلة ٠٠ مليانة ـ جدانة ٠

مارجريت ـ هذا ما قصدته لها ولكن قل لي أتقول حقا ام تتهكم ؟ !!

فريد ـ اقول حقا ٠ وأقول ما اعتقد بل وما أشعر وما أرى ٠٠

مارجريت ـ اسمع ٠ لقد كنت وانا صغيرة ازدادها املاء ووضوحا !!

فريد ـ ماذا تقولين ٠٠ أيمكن ذلك؟

مارجريت ـ نعم ٠ بالتدليك الدائم وبالارادة ٠ حركات اليد ومسحاتها وبالصبر مع الزمان وعلى الزمان مع رعية الاتقان ٠

فريد ـ وماذا كان قصدك من ذلك ؟ لعله للفتنة والافتتان

مارجريت ـ الآن يرضيني تهكمك ٠٠ فالشفتان اللتان تحبان التهكم على طريقتك ، تحبان المتهكم عليه ٠

فريد ـ ارتصينا ٠٠ ولكن لم تذكري ماذا كان قصدك في شفتك ؟ !!

مارجريت ـ ان احمنها مثل شفة المرحومة والدتي ٠

فريد ـ ولماذا ؟

مارجريت ـ لاني كنت اشعر بلذة قبلاتها ٠٠

فريد ـ هذا عجيب ٠٠ امسحاب اليد حتى مع الاستمرار تفعل هذا ؟!

مارجريت ـ صدقني ٠٠ انظر ٠٠ هات يدك ٠

فريد ـ يدي ؟ وما شأن اليد بالشفة ! !!

مارجريت ـ ادن هات شفتك ٠